

اهتمام القرآن بالعقل



اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بالعقل، وحثّ الناس على الرجوع إليه في كلّ الأمور التي تطرأ عليهم في معتك الحياة، وخاصة الاعتقادات التي لا بدّ فيها من إمعان النظر، وإعمال الفكر، لكي يتوصل المكلف إلى نتيجة مرضية تنفعه في دينه ودنياه وآخرته.

وليس للعقل أن يُصدّر القوانين والأنظمة، بل عليه أن يفهمها ويطبّقها بكلّ امتثال وطمأنينة.

فالرسل والرسالات إنما جاءت لكي يفهمها العقلاء، ويطبّقوا أوامرهم ونواهيها، لهذا لا يُفهم القانون إلّا بالعقل والعقلاء، ولا عقلاء بدون شرع وقانون، قال مولانا الإمام موسى الكاظم (ع) في وصيته لصاحبه هشام بن الحكم: إنّ على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة (عليهم السلام) وأما الباطنة فالعقول.

فبالعقل يُعبد الله سبحانه ويؤوّد، وبالعقل يُعرف الله سبحانه ويُمجّد.

سُئل مولانا الإمام جعفر الصادق (ع) عن العقل؟ فأجاب: العقل ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان، فقال السائل: فما الذي كان عند معاوية؟ فقال (ع): "تلك النكراء! تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل".

والعقل هو أوّل مَنْ امتثل لأمر الله تعالى وأطاع، فاعتبره سبحانه من أشرف مخلوقاته وأفضلها، قال مولانا الإمام محمد الباقر (ع): "لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي! ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أحب، أما إني إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أُنّيب".

إذن مدار الحياة على العقل والعقلاء، وكلّ التكاليف منحصرة بالعقل والعقلاء لهذا يكون الحساب يوم القيامة، ويكون الثواب والعقاب على قدر العقول، وقد أعطى مولانا أمير المؤمنين (ع) علامات للعقل، بعد أن بيّن أنّ العقل أفضل ما عبد الله تعالى به، فقال: "ما عبد الله بشيء أفضل من العقل،

وما تمّ عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، الذلّ أحبّ إليه مع الفقر من العز مع غيره والتواضع أحبّ إليه مع الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلّهم خيراً منه، وأنّه شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر.

أما القرآن الكريم فقد أكرم العقل والعقلاء، وبشّر أصحاب العقول والأفهام، بأنّهم هم المهتدون، وذكر لهم صفات، فقال سبحانه: (.. فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر/ 17-18).

وقد أشار سبحانه في كثير من آياته القرآنية، إلى عظيم صنعه، وكبر مملكته، وأنّه هو المدير لهذا الكون الرحيب، والصانع للسموات والأرض، وما يجري عليها من تعاقب الليل والنهار، وجريان السفن في البحار، وإنزال المياه من السماء لإحياء الأرض، ولولاه لا حياة للأرض ومن عليها، وغيرها من الفوائد الكونية، المترتبة على حركة الأرض، ودورانها، ووجود القمر وما فيه من فوائد، ووجود الرياح المسخر لحمل المطر من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان، كلّ ذلك وغيره ليلفت أنظار أصحاب النظر، وأفهام أصحاب العقول إلى عظيم صنعه، وإحكام قدرته، وحكمته وتديره للكون والحياة، لكي يعبدوه ويوحدوه، ولا يشركوا به أحداً، وأنّه هو الإله الخالق المكوّن، لا معبود سواه قال تعالى: (وَاللَّهُ هُكُمٌ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُتُوحِ السَّيِّئِ تَجَرِّي فِيهِ الْبَحْرِ يَمَافِي يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْحَا بِهِ الْأَرْضَ بِعُدٍ مَوْتَهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة/ 163-164).

وقال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالذُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل/ 12).

وقال سبحانه أيضاً: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْأُمُومِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْتِثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَنْحَا بِهِ الْأَرْضَ بِعُدٍ مَوْتَهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الجاثية/ 3-5).

ثم أرشد سبحانه أصحاب العقول إلى عظيم صنع الإنسان، وأنّه سبحانه الخالق المكون المبدع، الذي نقله من عالم إلى عالم، ومن حالة إلى حالة حتى أصبح خلقاً آخر (فَتَدَبَّرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/ 14).

فلعلّ هذا الإنسان الضال الطالم لنفسه، يفكر ويعود عن غيبه، ويعترف بربّه ويعبده ولا يشرك به أحداً، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَاقَةٍ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْدُلُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلَتَبْدُلُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (غافر/ 67).

ثمّ أرشد سبحانه أصحاب العقول إلى عظيم صنع النبات والأشجار، وكلّ المزروعات، وأنّه هو سبحانه الذي يأتي بالماء من مكان إلى مكان ليحي الأرض بعد موتها لأنّه سبحانه خلق الحياة من المياه ولولاها لا حياة.

ولفت نظر أصحاب العقول إلى الفواكه والأثمار، منها ما هو متشابه، ومنها ما هو غير متشابه، ومنها ما يشبه بعضه في الأكل، ومنه ما ليس له شبيه. كلّ ذلك علامات وأدلة للعقلاء على عظمة الخالق المكون سبحانه، لعلّهم يتفكرون، وإلى رشدهم يعودون، قال سبحانه وتعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم/ 24).

وقال سبحانه: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْصِلُ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ)

بَعَضُهُ فِي الْأَكْمَلِ إِنََّّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد / 4).

حقاً إنّ هذا الإنسان لظلوم جهول، لا يستعمل عقله، ولا يمعن النظر في ما خلق الله سبحانه من الأثمار التي يراها تشرب من ماء واحد، وتتغذى من تربة واحدة، وهواء واحد، ومع هذا يراها تختلف عن بعضها في الطعم، والرائحة، واللون، وغيرها من الصفات الخاصة بكل صنف منها.

سبحانك اللهم ما أحلمك على عبادك، وما أرفأك بمخلوقاتك، فإنك بحق رحمن رحيم، غفور كريم.

وهكذا، فإننا نجد القرآن الكريم، يختم الكثير من آياته المباركة بكلمة: (لعلهم يعقلون) أو (لقوم يعقلون)، ليحرك العقل عند العقلاء، ويحثهم على استعماله فيما وضع له، وهو اكتشاف الحكمة من وجود كل شيء، والغاية التي خلُق من أجلها كل شيء.

لهذا نراه سبحانه مدح في كتابه المجيد أولي الألباب، أصحاب العقول الواعية والأفكار الفاهمة، بأحسن المدح والثناء، فقال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (البقرة / 269).

وقال تعالى: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران / 7).

وقال سبحانه: (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰ إِنزَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الرعد / 19).

وقال سبحانه: (أَمَّن هُوَ قَانِيتُ أَنْزَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنزَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر / 9).

وقال سبحانه وتعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص / 29).

وقال تعالى: (وَذَكَّرَ فَإِنَّا الذِّكْرَىٰ تَذْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات / 55).

ثم ذم سبحانه الذين لا يتدبرون آياته، ولا يمعنون النظر في كتابه الذي (لا يأتونهم إلا باطل من بين يديهم ولا من خلفهم تنزيل من حكيم حميد) (فصلت / 42).

والذين لا يستعملون عقولهم، ليتعرفوا من خلالها على خالقهم ورازقهم، ومن له النشأة الأولى والآخرة، وهو الأول والآخر، قال سبحانه: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء / 82).

وقال عز من قائل: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَالِيَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد / 24).

لقد اهتم القرآن بالعلم واستعمال العقل، وأمر بالتفكير والتدبر، وشدد النكير على الذين قلدوا آباءهم، وخاصة الذين يعلمون أنهم مخطئون، ولم يصغوا لصوت العقل والضمير، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة / 170).

إذن القرآن الكريم هو وحي من عند الله سبحانه، نزل به الأمين جبرائيل على قلب نبينا محمد (ص) ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الرشاد.

والقرآن الكريم هو كتاب هداية وإرشاد، وبشرى للمتمسكين به (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي
لِلصَّالِحِينَ هِيَ أَقْوَمُ وَيُذَكِّرُ الْإِمَامُ وَمِنَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ
لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء / 9).

(كِتَابُ أَنْزِلَ لِنَا هُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم / 1).

وهو يأخذ بيد أبنائه إلى أسنى المراتب وأعلى الدرجات، لقد خاطب أصحاب العقول، وناجى ذوي
الضمائر الحية، علّهم يرفعهم، إن تمسّكوا به إلى مصاف الملائكة، فيجعل منهم خليفته في الأرض حقيقة،
قال سبحانه: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة / 30).

المصدر: كتاب القرآن يتجلى في عصر العلم